ضوابط إسلامية

في الأغراض الشعرية

محمد رفعت أحمد زنجير*

مقدمة

الشعر وعاء للمعرفة العلمية والعواطف الإنسانية منذ القدم، وهو سلاح من أسلحة البيان ولعله أقواها وأمضاها، فنحن في أواخر القرن العشرين، ما زلنا نستشهد بأبيات من المعلقات على معنى نريده، ونترنم بذكر أشعار للعذريين وغيرهم، بينما نعجز أو نكاد، فيما لو أردنا أن نستشهد بالنثر الجاهلي وما بعده من عصور، على معنى نطرقه، أو موضوع نعالجه، وذلك في المواطن التي يرتجل فيها الكلام، اللهم إلا أن يكون النص المراد حديثاً نبوياً، أو قولاً مأثوراً، أو خطبة ذائعة.

ومما يؤكد أهمية الشعر اتخاذه سلاحاً مشروعاً في مواجهة أعداء الدين في عهد النبوة.[1] وقد استمرت هذه الوظيفة للشعر فيما تلا ذاك العصر من عصور، حتى العصر الحديث، فنجد شعر الجهاد وما أكثره في هذا العصر.[2] ولعل السبب في ذلك هو ما تواجهه الأمة من تحديات على كافة الأصعدة: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويأتي في مقدمة هذه التحديات قضية الاستقلال والتحرر السياسي من السيطرة الاستعمارية.

وفي ظل هذه التحديات الخطيرة، بدأت الأمة تستيقظ، وبدا الحس الإسلامي ينمو، وكانت ولادة الصحوة الإسلامية، فكان لا بد للمسلم من أن يربط نفسه بالإسلام وهو يتطلع إلى المستقبل، وأن تنشط

---

* دكتوراه في البلاغة والنقد من جامعة أم القرى، 1415هـ/1995م. أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية معارف الوحي العلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

1 في الحديث المتفق عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان: "اهج المشركين، فإن جبريل معك". انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي: تحقيق الألباني، ج3، ص1351، دمشق: نشر المكتب الإسلامي، ط2، 1399هـ، 1979م.

2 جمع الدكتور عبد القدوس أبوصالح، والدكتور محمد رجب البيومي طائفة من هذا الشعر، ونشرته رابطة الأدب الإسلامي في الرياض تحت عنوان: من شعر الجهاد في العصر الحديث، وهو مما يؤكد ما قلناه.

الثقافة الإسلامية وتنتعش من جديد، ويقوم الأدب بمهمته في هذه اليقظة، فلم يعد الحياد مع قضايا الأمة مقبولاً من الأديب، بل ينبغي أن ينصهر في همومها وآلامها، وأن تكون أشعاره أو آثاره الأدبية المختلفة تعبر عن هذا الانصهار، وتدلل عليه.

والانصهار في قضايا الأمة غير كاف وحده، ما لم يرافق ذلك أيضاُ: الفنية في التعبير والأداء، والانضباط بالقيم الشرعية، فلا بد من التكامل بين الشكل والمضمون.

وهذا البحث هو خطوة لوضع تصور عام للضوابط الإسلامية للأغراض الشعرية، ولم نشأ أن نكتب عن موقف الإسلام من الشعر، لأن موقفه محدد وواضح في قوله صلى الله عليه وسلم: "هو كلام فحسنه حسن، وقبيحه قبيح".[3]

وعلى هذا جرى العلماء وجمهور الأمة من إباحة الشعر الجيد، قال القرطبي: "قال أبو عمرو: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أولي النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه فرضيه، ما كان حكمة أو مباحاً".[4] وقال العلامة الزبيدي: "الإنشاد والسماع جائزان بالإجماع"،[5] وقال الحافظ ابن حجر: "يتحصل من كلام العلماء في حد الشعر الجائز أنه: إذا لم يكثر منه في المسجد، وخلا عن هجو، وعن الإغراق في المدح، والكذب المحض، والتغزل بمعين لا يحل. وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على جوازه إذا كان كذلك".[6]

بل إن تعلم الشعر مهم لإدراك بلاغة الكلام، وتذوق بلاغة القرآن، يقول الشيخ ابن عاشور: "ولم يزل العلماء يعنون بشعر العرب ومن بعدهم، وفي ذلك الشعر تحبب لفصاحة العربية وبلاغتها، وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن".[7]

---

3 رواه الدار قطني، وإسناده حسن. انظر: مشكاة المصابيح: ج3، ص1355، مصدر سابق.

4 الجامع لأحكام القرآن: ج13، ص147، بيروت: دار الفكر.

5 إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: للإمام الزبيدي، ج7، ص494، بيرت: نشر دار الفكر، د. ت.

6 فتح الباري: ت: طه عبد الرؤوف سعد مع آخرين، ج22، ص343، مكتبة الكليات الأزهرية، 1978م.

7 تفسير التحرير والتنوير: ج19، ص212، تونس: الدار التونسية.

ما هي الأغراض الشعرية؟

الأغراض التي يتناولها الشعراء كثيرة، والمعاني التي يطوقونها متشعبة، ولكن أشهر هذه الأغراض خمسة، وقد أشار إليها أبو هلال العسكري حين قال: "ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة، ومعانيهم متشعبة جمة، لا يبلغها الإحصاء، كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالاً، وأطول مدارسة له، وهو: المدح والهجاء والوصف والنسيب والمراثي".[8]

وهناك أغراض أخرى للشعر، ففي حماسة أبي تمام مثلاً نجد باباً في مذمة النساء،[9] وآخر للملح، والأخير موجود في الحماسة البصرية تحت عنوان الملح والمجون،[10] إلا أن هذه الأغراض ليس شائعة لدى جميع الشعراء، وليست أغراضاً رئيسة في الشعر، لذلك سنكتفي بالأغراض الخمسة الرئيسة التي سبق ذكرها، وهي: المديح والهجاء، والوصف، والنسيب، والمراثي. ونسعى إلى معرفة أهم الضوابط الشرعية لهذه الأغراض من خلال هذا البحث.

أولاً – شعر المديح وموقف الإسلام منه

المديح هو أكثر الأغراض الشعرية دوراناً في الشرع العربي، وقد ازدهر شعر المديح بسبب تشجي الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة لهذا اللون من الشعر، ومنحهم الجوائز السنية لأربابه.

ويظن بعض الناس أن المديح يورث الرياء والخيلاء لدى الممدوح، ويضعف الإيمان لدى المادح، فيرفضون هذا اللون من الشعر.

---

8 كتاب الصناعتين: بتحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبوالفضل إبراهيم، ص131، صيدا: نشر المكتبة العصرية، 1406هـ، 1986م.

9 شرح ديوان الحماسة المنسوب للمعري: ت: د. حسين محمد بقشة، ج2، ص1233، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411هـ، 1991م.

10 انظر: الحماسة البصرية: تحقيق مختار الدين أحمد، ج2، ص1277، بيروت: عالم الكتب، ط3، 1403هـ، 1983م.

وهناك من يذهب إلى أن المديح يورث فوائد جمة،[11] فأنت تشيد بالصفات الخيرة في الممدوح وتثبت دعائمها في نفسه، وكأنك بهذا تدعو السامعين إلى الاقتداء به في مكارم الأخلاق، وفي هذا بعث لمشاعر التربية الاجتماعية، وتقوية للروابط الإنسانية.

والحق أن المديح لا يمكن قبوله مطلقاً، أو رفضه، وإنما لا بد من وضع ضوابط للقبول أو الرفض، وهو ما أشار إليها العلماء من قبل.[12] فالإمام الغزالي يرى أن هنالك آفات قد يقع بها المادح والممدوح على حد سواء. فالمادح قد يفرط فينتهي إلى الكذب، وقد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل لاطلاع عليه، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم فاسق. وفي مقابل هذا فإن الممدوح يضره المدح من وجهين، فقد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان، وقد يرضى بالمديح عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قلّ تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً[13] ثم يعقب على ذلك بقوله: "فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوباً غليه".[14]

ويرى القرطبي أن الشعر الذي يتضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه، أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه والذب عنه ومدح أصحابه رضي الله عنهم مندوب إليه. يقول: "فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمد لله العلي المنان   صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مدحه... أو الذب عنه، كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه   وعند الله في ذاك الجزاء

---

11 انظر دفاع د. زكي مبارك عن شعر المديح في رده على أحمد أمين في كتابه: جناية أحمد أمين على الأدب العربي، بيروت: نشر دار الجليل، 1991م. وانظر أيضاً: الإعجاز البلاغي: د. محمد ابوموسى، القاهرة: مكتبة وهبة، 1405هـ/1985م، ص22.

12 انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، راجعه خليل الميس، 15، 18، بيروت: دار القلم، ط1.

13 إحياء علوم الدين: تحقيق سيد إبراهيم، القاهرة: دار الحديث، 1412هـ/1992م، ج3، ص249-250.

14 المصدر السابق، ج3، ج251.

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه، وهي في السير أتم... أو الصلاة عليه... وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم".[15]

والزمخشري يرى توجيه المديح أيضاً إلى صلحاء الأمة،[16] ويرى النووي أن الشعر مستحب "إذا كان في ممادح الإسلام وأهله، أو في هجاء الكفار والتحريض على قتالهم أو تحقيرهم ونحو ذلك".[17]

ويباح للشاعر التوسع في المعاني، والذهاب في المبالغات، لأن هذا من سمات الشعر، يقول الإمام الغزالي: "نعم مقصود الشاعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار، والتوسع في المدح، فإنه وإن كان كذباً، فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب، كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر، فلا يقصد منه أن يعتقد صورته، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك، فلم يمنع منه".[18]

فكما نلحظ من كلام الغزالي أن ثمة فرق بين المبالغة، وهي أن يكون الممدوح شجاعاً مثلاً، فتشبهه بالأسد، لتثبت له كمال الشجاعة، وبين الكذب وهو أن يكون الممدوح جباناً، فتشبهه بالأسد، وتدعي له الشجاعة، أما المبالغة الأولى فلا مؤاخذة فيها، وهي من مقتضيات اللغة الشعرية، وأما الثانية ففيها مؤاخذة،[19] لأن الأديب المسلم يجب أن يتسامى عن قول الزور وتزييف الحقائق. ولهذا السبب نجد عمر بن

---

15 الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج13، ص146.

16 تفسير الكشاف: بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ/1995م، ج3، ص33.

17 شرح صحيح مسلم للنووي، مصدر سابق، ج15، ص278.

18 إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج3، ص200.

19 انظر: فتح الباري، مصدر سابق، ج22، ص343. والجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج13، ص148.

الخطاب رضي الله عنه، يُعجب بشعر زهير، وينعته بأنه أشعر الشعراء "لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه".[20]

فإذا كان زهير -وهو الشاعر الجاهلي- يلتزم بقيمة الصدق في شعره، مما أثار إعجاب عمر رضي الله عنه بشعره، فخليق بالشاعر المسلم أن يكون أكثر حرصاً على هذه القيمة العظيمة في شعره أيضاً، فلا يقلب حقائق الأمور، ولا يجعل من الصعاليك صناديد أو بالعكس، ابتغاء منفعة زائلة فلا بد من "إبعاد التكسب عن الأدب، مهما كانت الجهة التي يريد الأديب أن بتملقها، نظير دريهمات قليلة، أو شهرة زائلة، وهذا بطبيعة الحال على حساب الأهداف الحقيقية للشعر والنثر الفني".[21]

وينبغي الحذر من الغلو في شخصية الممدوح، وإعطائها من المديح ما لا ينبغي لبشر، فقد وقع كثير من الشعراء في المحظورات الشرعية من حيث لا يعلمون نتيجة للإفراط في المديح، وهذه أمثلة لذلك:

فهذا هو العكوك (علي بن جبلة) الشاعر العباسي المعروف، يمدح أبا دلف الخزرجي قائلاً:[22]

كل من في الأرض من عرب　　　بين بادية إلى حاضرة

مستعير منك مكرمة　　　يكتسيها يوم مفتخره

ذكر ابن خلكان أن الخليفة المأمون طلب العكوك لما قال هذين البيتين، "فلما صار بين يديه، قال له: يا ابن اللخناء، أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى، وهو أبو دلف: كل من الأرض من عرب... وأنشد البيتين؟ جعلتنا ممن يستعير المكارم منه؟ والافتخار به؟ قال: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم، لأن الله اختصكم لنفسه عن عباده، وآتاكم الكتاب والحكمة، وآتاكم ملكاً عظيماً، وإنما ذهبت في قولي إلى أن أقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس. فقال: والله ما أبقيت أحداً، ولقد أدخلتنا في الكل، وما استحل دمك بكلمتك هذه، ولكني أستحله بكفرك في شعرك، حيث قلت في عبد ذليل مهين، فأشركت بالله العظيم، وجعلت معه مالكاً قادراً، وهو:

---

20 كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، عالم الكتب، ج10، ص289.

21 د. عبد الحميد بوزينة: نظرية الأدب في ضوء الإسلام، عمان: دار البشير، 1411هـ/1990م، ص116.

22 وفيات الأعيان لابن خلكان: تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ج3، ص351.

أنت الذي تنزل الأيام منزلها   وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد   إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله عز وجل يفعله، أخرجوا لسانه من قفاه، فأخرجوا لسانه من قفاه فمات! وذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين ببغداد".[23]

وهذا ابن هانئ الأندلسي يقول لممدوحه :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

قال ابن خلكان: "وديوانه كبير، ولولا ما فيه من الغلو في المدح، والإفراط المؤدي إلى الكفر، لكان من أحسن الدواوين".[24]

وهذا المتنبي يورد له ابن كثير قوله في بعض الملوك:[25]

يا من ألوذ به فيما أؤمله   ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره   ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وعقب على ذلك بقوله: "وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى. وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم رحمه الله، أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود، أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع".[26]

---

23 نفسه، ج3، ص352-353.

24 نفسه، ج4، ص424.

25 البداية والنهاية: تحقيق د. أحمد أبوملحم وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ/1989م، ج11، ص275.

26 نفس المصدر.

هذه ليست إلا نماذج قليلة مما وقع به الشعراء في مخالفة الشارع، بسبب الغلو في أشخاص الممدوحين، وهو مما ترفضه الأذواق وتنفر عنه الفطرة السليمة، ولذلك أثار استياء الخليفة، وأهل العلم، فلا ينبغي رفع الممدوح أياً كان فوق ما يستحقه من رتبته البشرية، وعبوديته لله عز وجل.

ينبغي أيضاً تقديم الفضائل الإنسانية والدينية على الفضائل الجسمية والمادية للممدوح. فتكون الإشادة بعدله لا بجسمه، وبعطائه لا بقصره، لأن الأمور المادية من سلطان ومال وجمال ليست هي موضع التفاضل الحقيقي بين الناس، وإنما التفاضل فيما يؤتيه الله لكل واحد منهم من علم وحكمة، وما يوفقه إليه من طاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، فالتقوى هي المعيار الحقيقي للتفاضل في التصور الإسلامي. وقد تنبه لذلك عبد الملك بن مروان حين مدحه ابن قيس الرقيات، حيث قال:

يأتلق التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فغضب عبد الملك وقال: "قد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الل   ـه تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المديح بكشف الغمم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني، الذي هو كالذهب في النضارة".[27] هذه رواية أبي هلال للقصة. ورواها المرزباني بدون الزيارة الأخيرة، حيث جاء فيها أن عبد الملك قال بعد أن ذكر بيت مصعب: "وأما لي: فتقول: على جبين كأنه الذهب".[28]

---

27 الصناعتين: ص98، مصدر سابق.

28 الموشح: تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة: دار الفكر العربي، ص243-244.

وقد أعقب المرزباني على هذا الخبر في موضع آخر من كتابه حيث قال: "فوجه عيب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن الفضائل النفسية التي هي العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، وما جانس ذلك ودخل في جملته، إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة، وذلك غلط وعيب".[29]

هذا هو اجتهاد العلماء في هذه الحادثة. ولا يبعد أن يكون عبد الملك كان يرى في مديح مصعب بعداً دينياً عند قول الشاعر: "شهاب من الله" والشهاب من الله يدل أن له مهمة وهدف، فيرسله الله على رؤوس الشياطين من أعدائه، وفي هذا تزكية له وأية تزكية! وفي هذا تعريض بأعداء الدولة الزبيرية... ولعل عبد الملك كان يتوق لمثل هذا المديح.

يفضل عدم الإكثار من التشبيهات بالحيوانات والجمادات، وأن يكون تركيز الشاعر واهتمامه منصباً على الرقي بالممدوح، وإلحاقه بأهل الدرجات العلا، لا بوحوش الغابات التي ينهكها الجوع والسعي! قال أبو هلال: "وقد أنكر عبد الملك ما أنكره الأعرابي من تشبيه الممدوح بالأسد والصخر والبحر، ... قال عبد الملك يوماً وقد اجتمع الشعراء عنده: تشبهوننا بالأسد، والأسد أبخر. والبحر، والبحر أجاج. وبالجبل، والجبل أوعر. ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم في فاتك بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء

أأجعلكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأعينهم وأرؤسهم سماء"[30]

لقد فطن عبد الملك وهو من هو في تذوق الشعر ونقده!، إلى ضرورة التجديد في لغة الشعر، والانعتاق من أسر الطريقة الجاهلية في المديح، ليكون المدح منصباً على المعايير الحقيقية التي يتفاضل فيها الناس، وهي: طول الصوم والجهاد في النهار، وطول القيام والعبادة في الليل... ومثل هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات هم سادة الناس، ولا يستوي بهم غيرهم.

---

[29] المصدر السابق، ص283.

[30] ديوان المعاي: عالم الكتب، ج1، ص26-27.

يحسن إكرام الشعراء إذا لم يكونوا يتاجرون بالكلمة، وقدر روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلع على كعب بن زهير بردته الشريفة،[31] وهذه سنة حسنة. فالإكرام هو تشجيع لعمل العقل. وحث على تطوير اللغة الشعرية بما يخدم أهداف الدين الحنيف، مما يسهم في تطور الأمة، والمحافظة على لغتها الحية المتجددة، والحفاظ على اللغة أساس الحفاظ على الدين الحنيف. يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال، واستنصت أصحابه لشعر كعب بن زهير، مما فيه دقة صفات الرواحل الفارهة، على أنه أذن لحسان في مهجاة المشركين، وقال له: كلامك أشد عليهم من وقع النبل. وقال له: قل ومعك روح القدس... وأجاز عليه كما أجاز كعب بن زهير فخلع عليه بردته".[32]

ولكن كيف يتفقه هذا مع قول النبي صلى الله عليه وسلم" :إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب".[33]

لقد أجاب عن هذا العلماء، قال الخطابي: "المداحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة، يستأكلون به الممدوح. فأما من مدح الرجل على الفعل الحسن والأمر الممدوح، يكون منه ترغيباً له في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء في أشباهه فليس بمداح".[34]

وقال البغوي: "المدح والثناء على الرجل مكروه، لأنه قلما يسلم المادح عن كذب يقوله في مدحه، وقلما يسلم الممدوح عن عجب يدخله".[35]

والتوفيق بين ما قاله الخطابي والبغوي يكون بحسب الغرض من المديح، فإذا كان الغرض نيل المال، ولو بقول الزور، فهذا مرفوض.

---

31 خبر البردة في الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، 1402هـ/1982م، ج2، ص267. وفي البداية والنهاية: لابن كثير، مصدر سابق، ج4، ص367-373، وعقب عليه بقوله: "وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بسند أرتضيه، والله أعلم".

32 تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج19، ص211.

33 رواه مسلم. انظر مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج3، ص1358.

34 الخطابي: معالم السنن، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، 1367هـ، ج7، ص175.

35 شرح السنة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر المكتب الإسلامي، 139هـ/1971، ج13، ص151.

وإذا كان الهدف مشوباً كإرضاء الممدوح، ونيل الحظوة، وإرساء الفضائل الخلقية من خلال ذلك. فهذا فيه ما فيه،[36] وفي أحسن حالاته يكون مكروهاً.

وأما إذا كان الغرض وجه الله، وتشجيع الممدوح على السير في طريق الخير، والإشادة بالقيم الإنسانية العليا، فهذا هو السائغ المقبول. وفي هذا الإطار كانت مدائح حسان وكعب وابن رواحة لنبي صلى الله عليه وسلم، يقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: [37]

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت مجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكفرين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقولبنا به موقنات أن ما قال واقع

وأعلم علماً ليس بالظن أنني إلى الله محشور هناك فراجع

ويقول كعب بن مالك رضي الله عنه:[38]

ومواعظٍ من ربنا نُهدى بها بلسان أزهر طيب الأثواب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرها من بعدما عرضت على الأحزاب

حكماً يراها المجرمون بزعمهم حرجاً ويفهمها أولو الألباب

ففي هذه الأبيات اعتداد بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به، والفرح بما أنعم الله به على المؤمنين من نعمة الإسلام التي حرم منها الكفار بسبب جهلهم وغوايتهم.

ونلحظ في شعر حسان رضي الله عنه شيئاً كثيراً من هذا، من ذلك قوله:[39]

---

36 ذهب البيضاوي إلى ضرورة إعطاء المادح ما طلب. جاء في فتح الباري: ج22، ص270، "المراد بحثو التراث في وجه المادح إعطاؤه ما طلب، لأن كل الذي فوق التراب تراب، وبهذا جزم البيضاوي".

37 شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: عبد الله الحامد الحامد، الرياض: دار الأصالة، 1405هـ/1985م، ص271.

38 المرجع السابق، ص95.

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطيعون ولا يرديهم الطمع

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا

إن قال سيروا أجدو السير جهدهم أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا ين همك الأمر الذي منعوا

فإن في حربهم فاتركن عداوتهم شراً يخاض عليه الصَّاب والسَّلع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فالشاعر هنا يشيد بالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا عليه من منهج واضح، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وباتصافهم بالقيم العليا من شجاعة، وكرم، وصبر، ووفاء، وبأس، ولا عجب في ذلك طالما أنهم جند الله وأتباع رسوله الكريم، بينما يتبع غيرهم أهواءهم ويعبدون طواغيتهم.

ويمكن أن نعتبر شطراً من الشعر العربي كان يسير في هذا الاتجاه، ومن أجمل المديح وأصدقه قول الفرزدق في مدح زين العابدين بن علي بن الحسين، حين سئل عنه هشام ابن عبد الملك، فقال: لا اعرفه، فقال الفرزدق أنا أعرفه، ثم أنشد:[40]

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

---

39 المرجع السابق، ص380-381.

40 ديوان الفرزدق، بيروت: دار صادر، ص178-179.

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

كلتا يديه غياث عم نفعهما يُستو كفان ولا يعروهما عدمُ

سهلُ الخليقة لا تخشى بوادره يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم

حمال أثقال أقوام إذا افتدحوا حلو الشمائل تحلو عنده نعم

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

والقصيدة طويلة، وهي من غرر القصائد في الشعر العربي.

وما قدمناه ليس أكثر من مجرد نماذج لما يصلح أن يكون عليه شعر المديح، من حيث الإشادة بالقيم العليا التي يكون عليها الممدوح، بعيداً عن الأطماع الشخصية، وقد أثنى الرسول المعلم صلوات الله وسلامه عليه على بعض أصحابه، وعلى بعض أزواجه، وعلى بعض القبائل. وهو صلى الله عليه وسلم إمام في قوله وفعله، كما أنه صلى الله عليه وسلم قبل ثناء الشعراء وأجازهم، وقصارى القول في هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله».[41]

فمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوقيره والرفع من شأنه عمل جليل، ما لم يتجاوز ذلك حد المعقول. ولذلك علق العلامة علي القاري على هذا الحديث بقوله: "أي مثلٍ إطرائهم إياه، مفهوم أن إطراءه من غير جنس إطرائهم جائز".[42] وإذا كان الإطراء جائزاً بالحد المعقول بحق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو جائز بحق الصحابة والصالحين والقادة والفاتحين، ضمن الضوابط التي ذكرناها. وذهب الإمام النووي إلى

---

41 متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج3، ص1372.

42 مرقاة المفاتيح:تحقيق صدقي العطار، مكة المكرمة: نشر المكتبة التجارية، ج8، ص634.

استحباب الدعاء لمن قال شعراً يمدح فيه أهل الإسلام ويذم أعداءهم.[43] وهذا مما يؤكد أهمية هذا اللون من الشعر في حياة الأمة.

الفخر وموقف الإسلام منه

الفخر هو أحد أغراض الشعر، ويمكن أن يدرج تحت شعر المديح، لأنه مديح للنفس، وقد عرفه أبو هلال العسكري بقوله: "هو مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب وما يجري مجرى ذلك".[44]

ولا ريب أن مديح النفس ليس ديدن المسلم الذي يتواضع لله سبحانه وتعالى، وذلك إذا كان هذا المديح بقصد الرياء والسمعة، والتعالي والتباهي، فما أبعد المسلم عن هذا كله، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم" :لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم من جهنم".[45]

ولكن قد يكون الافتخار مطلوباً، وذلك في موطن الحرب، أو لإظهار نعم الله عز وجل والتحدث بها. وقد ورد عن الإمام البغوي قوله: "الافتخار والاعتزاز المنهي عنه ما كان في غير جهاد الكفار، وقد رخص النبي صلى الله عليه وسلم الخيلاء في الحرب مع نهيه عنها في غيرها، وروي أن علياً رضي الله عنه بارز مرحباً يوم خيبر، فقال:

"أنا الذي سمتني أمي حيدرة".[46]

وقال العلامة الطيبي: "لمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذموم منها ما كان عليها الجاهلية من الفخر بالآباء والأنساب للسمعة والرياء، والمحمود منها: ما ضم مع النسب الحسب في الدين لا رياءً، بل إظهاراً لأنعمه تعالى".[47]

---

43 انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، مصدر سابق، ج15، ص278.

44 الصناعتين، مصدر سابق، ص131.

45 من حديث رواه الترمذي وأبوداود عن أبي هريرة بإسناد حسن. انظر مشكاة المصابيح، ج3، ص1373.

46 مرقاة المفاتيح، مصدر سابق، ج8، ص631-632.

47 المصدر نفسه، ج8، ص632.

ويؤيد ما ذهب إليه العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم في يوم حنين، غشيه المشركون، فنزل عن بغلته وجعل يقول:

أنا النبي لا كذب　　　أنا ابن عبد المطلب

قال البراء: "فما رُئي من الناس يومئذ أشد منه".[48]

إذاً ليست هنالك مشكلة تجعلنا نرفض هذا الشعر، طالما أنه في إطار الوضعية التي أرادها الشرع الحنيف، ويمكن لنا أن نقبل كثيراً من شعر الحماسة والفخر الذي قيل في الفتوحات الإسلامية وما بعدها من عصور إلى عصرنا الحاضر. وذلك مثل قول سعد بن أبي وقاص:[49]

ألا هل أتى رسول الله أني　　　حميت صحابتي بصدور نبلي

أذود بها أوائلهم ذياداً　　　بكل حزونةٍ وبكل سهل

فما يُعتدّ رامٍ في عدوّ　　　بسهم يا رسول الله قبلي

وذلك أن دينك دين صدق　　　وذو حقٍ أتيت به وعدل

يُنجي المؤمنون به ويجزى　　　به الكفار عند مقام سهل

ومن شعر الفخر الذي ينسجم مع الدين الحنيف كثير من روميات أبي فراس الحمداني، ومنها قوله:[50]

لقيت نجوم الأفق وهي　　　صوارم وخضت سواد الليل وهو خيول

ولم أرع للنفس الكريمة خلة　　　عشية لم يعطف علي خليل

ولكن لقيت الموت حتى تركتها　　　وفيها وفي حد الحسام فلول

---

48 متفق عليه. انظر: مشكاة المصابيح، ج3، ص1372.

49 شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص276-277.

50 ديوان أبي فراس الحمداني، بيروت: دار صادر، ص233-234.

ومن لم يوق الله فهو ممزق   ومن لم يعز الله فهو ذليل

ومن لم يرده الله في الأمر كله   فليس لمخلوق إليه سبيل

فانظر إلى اعتداد الشاعر بنفسه وشجاعته وإقدامه في الحرب، وذاك نابع كله من إيمانه بالله عز وجل، وأن الله بيده مقاليد الأمر كله، وعليه وحده الاتكال. وهذا مما ينسجم مع العقيدة الإسلامية، بل هو نابع منها.

ثانياً – شعر الهجاء وموقف الإسلام منه

الهجاء ضد المديح، قال قدامة: "فكلما كثرت أضداد المديح كان أهجى له"[51] ومذهب الشعراء في الهجاء ذكره ابن رشيق القيرواني، فقال: "وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود، وترك الفحش فيه أصوب إلا جريراً".[52] والمفضل في الهجاء عند الأدباء أن لا يهجو المرء الصفات الجسدية، وقد أشار إلى ذلك أبو هلال العسكري حين قال: "والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل واشره، وما أشبه ذلكن وليس بالمختار في الهجاء أن ينسب إلى قبح الوجه، وصغر الحجم، وضؤولة الجسم، يدل على ذلك قول القائل:

فقلت لها ليس الشحوب على الفتى   بعارٍ ولا خير الرجال سمينها

وقول الآخر:

تنال الخير ممن تزدريه   ويخلف ظنك الرجل الطرير"[53]

ولا شك أن ما ذهب إليه جمهور الشعراء من قصر الهجاء هو الصواب، فالتمادي في الهجاء ليس محموداً، ويسبب اللغو وعثرات اللسان.

---

51 نقد الشعر: تحقيق د. خفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص113.

52 العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق د. مفيد قمحية، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ/1983م، ج2، ص381-382.

53 الصناعتين: ص104.

وكذلك الأمر بشأن الاقتصار على الصفات النفسية دون الجسمية، لأن المرء لا يتحكم بشكله وجسمه، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، ولكن يستطيع التحكم بغرائزه، وأفعاله التي هي محل المؤاخذة والتفاضل بين الناس، فما ذنب جحظة مثلاً حين هجاه ابن الرومي بقوله:[54]

تخاله أبداً من قبح منظره　　　مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا

وقبل تحديد الضوابط الشرعية لهذا الغرض لا بد من الإشارة إلى أن الدين الحنيف رخص في هذا اللون من الشعر عند الضرورة، وليس مطلقاً. قال الفخر الرازي: "إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة، بياناً لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: أحدها الإيمان، وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الشعراء: 227) وثانيها: العمل الصالح، وهو قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشعراء: 227). وثالثها: أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق، وهو قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الشعراء: 227). ورابعها: أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم. وهو قوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ (الشعراء: 227) قال الله تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ (النساء: 148) ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء، لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: 194)".[55]

وقال الدكتور الزحيلي: "فإن كان –لشعر– انتصاراً ممن هجا المسلمين، وشبب بأعراضهم جاز".[56]

فالهجاء جائز لرد العدوان، ولأهل البغي والفسق الذين يعلنون العداوة لهذا الدين. كما يجوز الهجاء لشريحة من المجتمع المسلم من أهل البدع والفسق، ممن يجاهرون بذلك، وذلك "كالمخنث، وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمرة، ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به، بحيث لا يستنكف من أن يذكره له، ولا يكره أن يذكر به".[57]

---

54 ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار، ج3، ص1092.

55 الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، 1405هـ/1985م، ج24، ص176.

56 د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير، بيروت: دار الفكر، 1411هـ/1991م، ج19، ص249.

57 إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج3، ص239.

وينبغي في الهجاء تجنب ذكر المعايب الجسمية، والألفاظ البذيئة، تناغماً مع آداب الإسلام وانسجاماً مع مقاصده، واقتصاره على شرائح معينة لا يتعداها، وذلك أن هجاء عامة المسلمين أو الدهر أو الزمان يتنافى مع خلق الإسلام، ويجب على الحاكم المسلم محاسبة أولئك الذين يهجون الناس بدون سبب شرعي، كما فعل عمر رضي الله عنه مع الحطيئة حين سجنه لما هجا الزبرقان بن بدر، ثم خلى سبيله "وأخذ عليه ألا يهجو أحداً، وجعل له ثلاثة آلاف درهم اشترى بها منه أعراض المسلمين".[58]

فليست أعراض المسلمين وعيوبهم موضعاً للتندر والسخرية والاستهزاء كما نراه في برامج التلفاز، فذاك هو غاية الإثم. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها حين وصفت صفية بأنها قصيرة: «لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته!».[59]

يستحب هجاء الكفر وأعمال الكفار، لكي يرتدعوا ويفكروا لعلهم يرجعون إلى الرشد، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بذلك.[60] وأكثر ما يستحب هذا الهجاء عند الحرب، ولكن يجب ألا يشوبه الافتراء على الكفار بأنهم فعلوا شيئاً معيناً وهم لم يفعلوه، فالمؤمن لا يعرف إلا الصدق. وما أحسن قول حسان رضي الله عنه يخاطب أبا سفيان، ويذود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مما يعد مثلاً يُحتذى في الهجاء المهذب اللاذع، وذلك قوله:[61]

ألا أبلغ أبا سفيان عني	مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً	وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً	أمين الله شيمته الوفاء

58 الأغاني، مصدر سابق، ج1، ص38-40.

59 رواه أحمد والترمذي وأبوداود. انظر: مشكاة المصابيح، ج3، ص1363.

60 انظرالهامش 1.

61 ديوان حسان بشرح البرقوقي، المطبعة الرحمانية، 1347هـ، ص7-10.

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

لساني صارم لا عيب فيه وبحري ما تكدره الدلاء

ثالثاً – شعر الوصف

المراد بالوصف كما ذكر ابن قدامة: "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات".[62]

والأشياء التي يصفها الشعراء كثيرة، فكل ما حولهم من الطبيعة والناس والأشياء يمكن لهم أن يصفوها في أشعارهم.

وأجود الوصف هو "ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك".[63]

والوصف يمكن أن يؤدي غرضاً إسلامياً إذا التفت الشاعر إلى آثار قدرة الله المبدعة في صنع الأشياء، فالكون كتاب صامت، وفي كل شيء آية تدل على الموجد المبدع، كما قال أبو العتاهية:[64]

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ووظيفة الشاعر أن يبرز الآيات للناس، من خلال هذه الكائنات الجميلة التي أبدعها الخالق عز وجل، وذلك مثلما فعل أبو العلاء المعري حين وصف الديك، وبين ما لهذا المخلوق الجميل من خصائص ومزايا... منها أنه دعامة للدين الحنيف حين يذكر الناس بأداء الصلاة. يقول:[65]

أيا ديك عدت من أياديك صيحة بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

---

62 نقد الشعر، مصدر سابق، ص130.

63 الصناعتين، مصدر سابق، ص128.

64 ديوانه: تحقيق د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ، ص104.

65 أبو العلاء المعري: اللزوميات، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ/1983م، ج2، ص274-275.

ومنها:

عليك ثياب خاطها الله قادراً بها رئمتك العاطفات الروائم

وتاجك معقود كأنك هرمز يباهي به أملاكه ويوائم

وعينك سقط ما خبا عند قرة كلمعة برق مالها لدهر شائم

وما افتقرت يوماً إلى موقد لها إذا قربت للموقدين الهشائم

ورثت هدى التذكار من قبل جرهم أوان ترقت في السماء النعائم

وما زلت للدين القديم دعامة إذا قلقت من حامليه الدعائم

ومن أحسن الوصف ما فيه استكشاف للحقائق بين بواطن الأشياء، ومن ذلك قول ابن الرومي في العلاقة بين السيف والقلم:[66]

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت والموت لا شيء يغالبه ما زال يتبع ما يجري به القلم

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

فالقلم كناية عن صاحبه وهو الكاتب العالم، والسيف كناية عن السلطان الغالب، وإذا كان صاحب القلم يأتمر بأمر صاحب السيف، فهذا لا يعني أفضلية الثاني على الأول، لأن القضاء الأزلي جرى بالقلم، وكل ما يجري في الوجود تبع لما خطه القلم الأول، ويكفي بهذا فضيلة للقلم على السيف!

وفي الموضوع ذاته يقول أبو الفتوح البستي:[67]

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم

---

66 السيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، دار الفكر، ج2، ص326.

67 المرجع السابق، ج2، ص327.

كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة   مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

فوصف هذه الكائنات، بما يملأ القلب خشوعاً وخضوعاً لله عز وجل، هو من صميم عمل الشاعر المسلم؛ كما يجدر بالشاعر المسلم أن يراعي ما يلي:

أن يجعل ما يصفه من قصور وعمران أنموذجات للآخرة، فلا يفتتن بها أو يفتن بجمالها الناس، وإنما يتذكر دوماً أن هذه الدنيا درا ابتلاء، وأن النعيم الكامل في دار الخلود، فعلى الناس أن تشد عزائمها، وتسعى في طلب الجمال الخالد في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهو ما صنعه البحتري عندما وصف بعض قصور المتوكل، ثم أعقب الوصف بقوله:[68]

شوقتنا إلى الجنان فزدنا   في اجتناب الذنوب والآثامِ

ألا يصف الأشياء المحرمة وصفاً يغري بها، مثل الخمر التي غرق في حبها بعض الشعراء، ووصفوها وصفاً يشجع الناس على كرعها والعياذ بالله تعالى. بل يجب أن يصفها وصفاً ينفر منها، فمن الوصف الأثيم للخمر قول ابن الرومي:[69]

فكأنها وكأن شاربها   قمرٌ يقبل عارض الشمسِ

ومن الوصف الذي ينفر منها، ويتفق مع الشريعة السمحاء، ورسالة الأديب المسلم، قول أبي العلاء:[70]

توخ بهجر أم ليلى فإنها   عجوز أضلت حي طسم ومأربِ

دبيب نمال عن عقار تخالها   بجسمك شر من دبيب العقارب

ولو أنها كالماء طلق لأوجبت   قلاها أصيلات النهى والتجارب

---

68 ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مصر: دار المعارف، ج3، ص2002.

69 ديوانه، مصدر سابق، ج3، ص1175.

70 اللزوميات، مصدر سابق، ج1، ص104.

تحيي وجوه الشرب فعل مسالمٍ		يضاحكه والكيد كيد محاربِ

وحري بالشاعر المسلم أن يبتعد عن وصف العاهات والسوؤات، لما في ذلك من الحرمة من جهة، ولما فيه من الإيذاء لأصحابها من جهة أخرى.

رابعاً – شعر النسيب:

النسيب هو "ذكر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن".[71] والنسيب هو من أكثر الأغراض الشعرية التي يحبها عامة الناس، فهو غرض وثيق الصلة بالنفوس وما فيها من خلجات.

ومن الشعراء من وصف المرأة وصفاً حسياً مثل عمر بن أبي ربيعة، ومنهم من وصفها متعففاً مثل الشعراء العذريين، ولأهمية هذا الغرض يذيع صيت شعرائه، وقد كان من عادة العرب أن يبتدئوا قصائدهم بالنسيب.

والنسيب المتعفف ليس محرماً، فقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان وكعب وغيرهما، ولم ينكر المقدمات الطليلة عليهم. قال العلامة الزبيدي:"فمن ذلك إنشاد كعب بن زهير بين يديه قصيدته اللامية، وفيها من التشبيب والمبالغات ما لا يخفى، ولم ينكر عليه ذلك".[72] وكذلك استمعت زوجته عائشة للنسيب، ففي الحديث عن مسروق قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشبب بأبيات له...".[73] وفي تعقيبه على قصيدة بانت سعاد يقول القرطبي: "فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح".[74]

وللفقهاء والعلماء غزل عفيف مبثوث في كتب السير والتراجم، ولكن مما يجدر التنبه إليه في تعاطي هذا اللون الشعري هو ضرورة اجتناب التشبيب بامرأة معينة،[75] أو ما يدل على معين، واجتناب العبارات

---

71 نقد الشعر، مصدر سابق، ص134.

72 إتحاف السادة المتقين، مصدر سابق، ج7، ص494.

73 شرح صحيح مسلم، مصدر سابق، الحديث 2488، ج15، ص280.

74 الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج13، ص147.

75 فتح الباري، مصدر سابق، ج22، ص343.

والأوصاف التي تهيج الغرائز الجنسية، واجتناب النسيب بالغلمان والمخنثين مطلقاً، فهو من أكبر المحرمات،[76] وقد داب بعض الصوفية على نقل هذه الأشعار الغزلية إلى معان دينية، زاعمين الحب والعشق للذات الإلهية من خلالها، فتراهم يطربون لدى إنشادها ويتواجدون، وهذا من أفرى الفرى، وقد حمل عليهم جار الله الزمخشري حملة شديدة في تفسيره، مؤكداً حرمة ذلك.[77]

وينبغي عند تعاطي هذا اللون من الشعر رسم علاقة نزيهة بين الرجل والمرأة، في الإطار الذي ترضاه العقيدة، وتقبله الفطرة، من خلال العلاقة الزوجية فقط، وما أحسن قول مصطفى صادق الرافعي في هذا الصدد:[78]

من للمحب ومن يعينه		والحب أهنأه حزينه

أنا ما عرفت سوى قساو		ته فقالوا كيف لينه

إن يقض دين ذوي الهوى		فأنا الذي بقيت ديونه

قلبي هو الذهب الكريم		فلا يفارقه رنينه

قلبي يحب وإنما		أخلاقه فيه ودينه

يا من يحب حبيبه		وبظنه أمسى يهينه

وتعف منه ظواهر		لكنه نجس يقينه

إن تنقلب لص العفاف		لمن تحب فمن أمينه

[76] محمد محمود الحجازي: التفسير الواضح، الزقازيق: دار التفسير، ج19، ص77، والزحيلي: التفسير المنير، مصدر سابق، ج19، ص248.

[77] تفسير الكشاف، مصدر سابق، ج1، ص634.

[78] الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، ج2، ص290.

ما لذة القلب المدله　　　لا يطول به حنينه

الحب أفق طاهر　　　ما إن يدنسه خؤونه

هكذا الحب... طهارة وسمو وارتقاء... وليس علاقات مدنسة في الخفاء،[79] ومن النسيب المستحسن قول ابن سنان الخفاجي:[80]

أتظن الورق في الأيك تغني　　　أنها تضمر حزناً مثل حزني

لا أراك الله نجداً بعدها　　　أيها الحادي بها إن لم تجبني

هل تباريني إلى بث الجوى　　　في ديار الحيّ نشوى ذات غصن

هب لها السبق ولكن زادنا　　　أننا نبكي عليها وتغني

ومما يلحظ هنا قلة الشعر الإسلامي الحديث في هذا المضمار، وكأن الشعراء الإسلاميين شغلتهم قضايا الأمة الكبرى عن كل ما سواها، مما جعل الأجيال الناشئة تتداول دواوين شعراء اللهو والمجون في العصر الحديث، فضاعت الأخلاق، وتحللت القيم، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن بإلحاح: لماذا لا نوجد البديل الصالح عن هذه الدواوين الحمراء التي تباع هنا وهناك... هل يجوز إهمال الجانب الهام في حياتنا الاجتماعية والعاطفية؟

خامساً – شعر المراثي

الرثاء مدح للميت، قال قدامة: "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك".[81]

---

79 ما أحسن قول ليلى الأخيلية:

وذي حاجة قلنا له لا تبح　　　فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه　　　وأنت لأخرى صاحب وخليل

انظر الهاشمي: جواهر الأدب، مرجع سابق، ج2، ص468.

80 ديوانه، بيروت: المكتبةالأنسية، 1309هـ، ص104-105.

ولأن الرثاء هو مدح للميت، فما قلناه عن الضوابط في شعر المديح، يمكن أن يقال هنا، ويمكن إضافة الآتي:

الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله هو الذي يحيي ويميت، ومن ثم يجب على الشاعر أن يجتنب كل عبارة فيها سب وقذف للدهر، وأنه خؤون يغتال الناس، فهذا كله مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية، وهو كثير في شعرنا القديم. وقد ورد نهي من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن شتم الدهر، ففي الحديث: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر".[82]

دعوة أهل الفقيد إلى الصبر، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:156).

ذكر الآخرة والمعاد، وأن هذا مصير الإنسانية قاطبة، مهما امتد العمر وطال الأمل. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتْ﴾ (آل عمران: 185).

عدم الإسراف في تصوير التفجع والحزن، فليس مستساغاً قول المتنبي مثلاً في رثاء محمد بين إسحاق التنوخي:[83]

خرجوا به ولكل باكٍ خلفه   صعقات موسى يوم دك الطور

وذلك لما في هذا البيت من المبالغة الشديدة التي تصور حزن القوم، ولكنها على أية حال لن تكون كصعقات موسى... ولذلك كانت هذه مبالغة ممجوجة.

عدم الإسراف في مدح الميت، وأنه جبل مضى ونحو ذلك. مثلما فعل ابن الرومي في رثاء محمد بن نصر بن بسام حيث قال:[84]

---

81 نقد الشعر، مصدر سابق، ص118.

82 رواه مسلم عن أبي هريرة، انظر الجامع الصغير مع فيض القدير، نشر دار الفكر، ج6، ص399.

83 ديوانه بشرح العكبري، نشر دار الفكر، ج2، ص129.

84 ديوانه، مصدر سابق، ج5، ص1962.

من لم يعاين سير نعش محمد		لم يدر كيف تسير الأجبال

فمثل هذه المبالغات لا تفيد الميت، وقد تكون موضع مؤاخذة لدى الشارع الحكيم. ففي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من ميت يموت، فيقوم باكيهم فيقول: واجبلاه! واسيداه! ونحو ذلك، إلا وكل به ملكين يلهزانه، ويقولان: أهكذا كنت؟". [85]

والآثار في هذا الباب كثيرة ومختلفة، وجمع بينها العلامة علي القاري فقال: "والحاصل أن الميت إذا كان له تسبب في هذه المعصية ولو بتقصير في الوصية، أو رضي بهذه القضية، فالعذاب على حقيقته، وإلا فمحمول على تألمه، سواء عند نزعه أو موته، ويستوي فيه الكافر والمؤمن، وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: 164)، وبين الأحاديث المطلقة في هذه البلية الكبرى". [86]

ومن الرثاء الإسلامي الصادق رثاء أبي ذؤيب الهذلي لأولاده، قال أبو زيد عمر بن شبة: "تقدم أبو ذؤيب جميع هذيل بقصيدته العينية التي يرثي فيها بنيه، يعني قوله:

أمن المنون وريبه تتوجع		والدهر ليس بمعتبٍ من يجزع" [87]

ومن عيون المراثي أيضاً، رثاء التهامي لولده، وفيها: [88]

جاورتُ أعدائي وجاور به		شتان بين جواره وجواري

ولكن أفضل مرثية على الإطلاق هي مرثية حسان في النبي صلى الله عليه وسلم ومطلعها: [89]

بطيبة رسم للرسول ومعهد		منير وقد تعفو الرسوم وتهمدُ

---

[85] روه الترمذي، وقال حديث حسن غريب، وهو من أحاديث مشكاة المصابيح. انظر المرقاة مع المشكاة، مصدر سابق، ج4، ص235.

[86] مرقاة المفاتيح، مصدر سابق، ج4، ص236.

[87] الأغاني، مصدر سابق، ج6، ص265.

[88] ديوان التهامي، تحقيق د. الربيع، الرياض: مكتبة المعارف، ط1، 1402هـ/1982م، ص310.

[89] القصيدة في ديوانه، مصدر سابق، ص89-97.

خاتمة

قدمنا فيما سبق بعض الضوابط الشرعية للأغراض الشعرية، ونرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك:

ففي شعر المديح يجب إخلاص النية لله تعالى، ومدح الإنسان بما فيه والبعد عن الإسراف والمبالغة، والتركيز على الصفات المحمودة، وتقديم الفضائل الإنسانية والدينية على الفضائل الجسمية والمادية للممدوح، وبيّنا أن الفخر هو فرع من فن المديح، وأنه ليس من ديدن المسلم الذي شيمته التواضع، ولكنه قد يكون مطلوباً في مواطن الحرب، أو لإظهار أنعمُ الله تعالى، والتحدث بها بما لا يورث الغرور والكبرياء.

وفي شعر الهجاء ينبغي عدم هجاء الصفات الجسدية التي جعلها الله ملازمة للإنسان، وإنما هجاء الصفات النفسية من شره وجبن وكفر ونحو ذلك، وأن لا يكون الهجاء سبيلاً للافتراء على الآخرين، ويجب أن يقتصر على أهل الكفر المحاربين أو أهل الزندقة والإلحاد في المجتمع الإسلامي أو المجاهرين بالفسق والمعصية.

وفي شعر الوصف بيّنا أن الكون كتاب صامت يشهد على قدرة الخالق المبدع عز وجل، ووظيفة الشاعر أن يبرز الآيات المبثوثة للناس في كل شيء، وأن يبتعد عن وصف المحرمات وصفاً يغري بها مثل الخمرة ونحوها من الموبقات.و كذلك يبتعد عن وصف العورات والسوءات، ويجعل ما يصفه في محراب الطبيعة أو بدائع العمران من قصور وتحف أنمودجات للآخرة.

وفي شعر النسيب بيّنا أن النسيب العفيف مسموح به، ولكن الإسلام يرفض النسيب الصارخ الذي يستثير الغرائز ويهيج الشهوات، كما يرفض الغزل بامرأة معينة، ويحرم الغزل بالذكور نهائياً.

وفي شعر المراثي بينّا أن الشاعر يجب عليه أن يذكر الناس بثوابت الإيمان، وبالقضاء والقدر، ويبتعد عن سب الدهر، وقذف الزمان، وينبغي أن لا يسرف في تصوير التفجع والحزن، أو في مديح الميت فوق ما يستحقه.

وهذه الضوابط مهمة للشاعر المسلم في العصر الحديث، ويجب مراعاتها في نتاجه كله، حتى يكون ما يقوله من شعر منسجماً مع رسالة الإسلام، ومحققاً لأغراضه العظيمة وقيمه الخالدة، مؤكدين أهمية التزام

الشاعر المسلم بدينه وقيمه، وأن لا يطلق الكلام علىعنانه، بل يعد نفسه مسؤولاً عن كل كلمة يقولها أمام الله والأمة والتاريخ والأجيال، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (قّ:18).